بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

وبعد . .

فإن قضية « الإيمان » ليست أمراً على هامش الوجود ، يجوز لنا أن نُغفله أو نستخف به ، أو ندعه فى زوايا النسيان ، كيف وهى أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره ؟ بل أجد قضية الإيمان هى أعظم « قضية مصيرية » بالنظر إلى الإنسان .

إنها سعادة الأبد أو شقوته ، إنها لجنة أبداً أو لنار أبداً ، فكان لزاماً على كل ذى عقل أن يفكر فيها ويطمئن إلى حقيقتها .

وقد فكر الكثيرون من أولى الألباب ، وانتهى كل منهم إلى إثبات العقيدة فى الله بطريقه الخاص .

فمنهم من استند إلى صوت الفطرة فى أعماقه ﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[إبراهيم : ١٠] . . ﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم : ٣٠] . .

ومنهم من اعتمد على مبدأ « السببية » الذى يقرر أن كل صنعة لا بد لها من صانع ، وكل حادث لابد له من مُحدث ، وكل حركة لابد لها من محرك ، وكل نظام لابد وأن يكون وراءه مُنَظِّم ، وهذا المبدأ ثابت ثبوت ألأوليات البديهية فى العقول .

ومنهم من ناقش المسألة مناقشة حسابية ، رياضية ، فانتهى إلى أن الأضمن

لحياته ، وما بعد حياته ، أن يؤمن بالله وبالآخرة والبعث والجزاء .وفى مثل هذا يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى :

قال المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما لا تُبعث الأموات ، قلتُ : إليكما

إن صح قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صح قولى فالخسار عليكما

وقال الفيلسوف الرياضى « باسكال » :

« إما أن تعتقد أن الله موجود أو لا تعتقد ذلك ، فماذا تختار ؟ إن عقلك لعاجز كل العجز أن يختار ، وإنها للعبة جارية بينك وبين الطبيعة ، رمى فيها كل منكما بسهمه ، ولابد أن يربح أحد السهمين .. فوازن بين كل ما يمكن أن تربح ، وما يمكن أن تخسر . وإذا راهنتَ بكل ما تملك على ظهور السهم الأول ـ أى على وجود الله ـ فإذا كسبت الرهان ، فقد حصلتَ على سعادة أبدية . فإذا أخفقتَ فسوف لا تفقد شيئاً مهماً .. فلستَ تخاطر إلا بشىء فان ، وكل غُرمٍ فانٍ ، ـ ولو كان محقق الوقوع ـ محتمَل ومعقول » .

ونحن نزيد على هذا فنقول : إن الذى يؤمن بالله والدار الآخرة لا يُخاطر بدنياه الفانية ليربح آخرته الباقية .. كلا ، إنه بإيمانه يربح الحياتين معاً ، ويفوز بالحسنيين فى الدنيا والآخرة جميعاً . وصدق الله العظيم : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ [النساء :١٣٤] ، ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ** ﴾ [النحل :٣٠] ..

إن العبادات التى فرضها الدين إنما هى وسائل لتزكية نفس المؤمن وترقية روحه ، وما يُبذل فيها من جهد ، إلى جنب ما يُكسب وراءها من خير .

وإن المحرَّمات التى حظرها عليه الدين ، إنما صان بتحريمها عقله وخُلُقه ونفسه وماله وعرضه ونسله ، فهو إنما ﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الأعراف :١٥٧] ..

والدين إذا حرَّم على الناس شيئاً عوَّضهم ما هو خير منه ، مما لا يشتمل على مفسدة الشيء المحرَّم .

إن المؤمن لم يخسر شيئاً بعبادة الله سبحانه ، واتقائه ما حرَّم الله عليه ، وإنما ربح الهُدى والاستقامة على الحق ، والثبات على الخير ، والاستعلاء على الشهوات، وربح بعد ذلك هدوء النفس وطمأنينة الحياة . .

وفى عصرنا هذا أصبح الناس يجرون وراء المنفعة لاهثين ، حتى إن كثيراً منهم ليرون الحق فيما ينفعهم لا فيما يطابق الواقع أو ما تقوم البراهين على صحته .

وقد قام مذهب برأسه ينادى بأن «المنفعة مقياس الحقيقة» ويصر على أن المهم من كل شيء هو نتائجه وما يترتب عليه من آثار فى حياتنا العملية . . وعلى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع ، بل انسجامه مع ما يقع ، وهكذا، فكل شيء يُحكم عليه بما يتبعه من نتائج ، فإن كانت هذه النتائج متناسبة مع أغراضنا، ومع ما نريد من مقدماتها ، كانت خيراً وصدقاً وحقاً . وإن كانت غير ذلك كانت شراً وكذباً وباطلاً ، ولا يوصف الفعل بحسن ولا قبح ، ولا يُوصف القول بالصدق والكذب حتى تُعرف ثمرته[1] هذا هو مذهب «البراجماتزم» .

ونحن لا نخشى هذا المذهب على عقيدتنا ـ وإن كنا لا نوافق عليه فى الجملة ـ فإننا نُوقن أن أنفع شيء للناس هو الحق ، وأن أضر شيء بالناس هو الباطل، وقد ضرب القرآن مثلاً للحق بالماء بالسائل والمعدن النافع ، وللباطل بالزَّبد الرابى على وجه الماء حين يسيل به الوادى ، أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يُوقد عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع .

ثم قال الله معقباً على هذا التمثيل : ﴿ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ** ﴾ [الرعد : ١٧] . .

---

(١) مقتبس من خاتمة الدكتور محمود حب الله لكتابى «إرادة الاعتقاد» و«العقل والدين» لوليم چيمس.

والذى يمكث فى الأرض هو الحق ، وهو الذى عبَّر عنه القرآن : ﴿ **مَا يَنفَعُ النَّاسَ** ﴾ . . إنه ينفعهم مادياً ومعنوياً ، ينفعهم أجساماً وعقولاً وقلوباً ، وينفعهم أفراداً وجماعات ، وينفعهم دنيا وآخرة .

إننا إذا وافقنا على اعتبار المنفعة فى الجملة فإننا نختلف مع الماديين فى قياس المنفعة ، وتحديد نوعها ومداها . نحن لا نقيس المنفعة بالكم وبالمادة فحسب ، ولا نعتبر المنفعة الفردية وحدها ، بل نُدخل فى اعتبارنا الكم والكيف والمادة والروح ، والفرد والمجتمع جميعاً .

بل نحن لا نُقصر المنفعة على الحياة العاجلة هنا ، بل نضع فى حسابنا دائماً الحياة الآخرة حياة الخلود التى أُعدَّت للإنسان وأُعِدَّ لها الإنسان .

هذه السطور تمهيد لابد منه ، لبيان غرضنا من تأليف هذا الكتاب : « الإيمان والحياة » (١) .

إننا نريد أن نُلقى بعض الضوء على الآثار المباركة للدين فى حياة الإنسان .

مقتصرين على الدين فى جانبه العقدى . الدين باعتباره إيماناً بالله وبرسالاته، وبالدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وثواب وعقاب .

وفى هذا الكتاب سنتبين بوضوح تلك الفردية الظالمة ، التى زعمت أن الدين مُخدِّر للشعوب . أو مُعوِّق للحياة ، كما يزعم الماركسيون .

أجل ، لو أننا احتكمنا إلى مقياس المنفعة وحدها ، ورضينا منطق الذين لا يعتنقون فكرة إلا لمصلحة ، ولمصلحة دنيوية فحسب لوجدنا الدين ـ مع هذا ـ ثقيل الميزان مبين السلطان ، فقد أثبت التاريخ والاستقرار لحياة البشر أن الدين ضرورة لا غنى عنها : ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ، وتزكو نفسه . وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتفع ويرقى .

---

(١) هذا الكتاب هو الذى سبق أن أعلنت عنه بعنوان « العقيدة والحياة » ولكنى آثرت أن أستعمل الكلمة التى استعملها القرآن الكريم فى التعبير عن العقيدة وهى كلمة « الإيمان » ولا شك أن إيحاءها أعمق وأقوى .

والفرد بغير دين ولا إيمان ريشة فى مهب الريح لا تستقر على حال ، ولا تُعرف له وجهة ، ولا تسكن إلى قرار مكين . الفرد بغير دين ولا إيمان إنسان ليس له قيمة ولا جذور ، إنسان قلق متبرم حائر ، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده ، لا يدرى من ألبسه ثوب الحياة . ولماذا ألبسه إياه ، ولماذا ينزعه عنه بعد حين ؟! وهو بغير دين ولا إيمان : حيوان شره أو سبع فاتك ، لا تستطيع الثقافة ولا القانون ـ وحدهما ـ أن يُحدا من شراهته ، أو يُقلِّما أظافره .

والمجتمع بغير دين ولا إيمان مجتمع غابة . وإن لمعت فيه بوارق الحضارة . الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى ، لا للأفضل ولا للأتقى . . مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم . مجتمع تافه رخيص لأن غايات أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج فهم ﴿ **يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد :١٢] . .

و(العلم) المادى وإن امتد رواقه ، واتسعت ميادينه ، ليس بمستطيع أن يُحقِّق الطمأنينة والسعادة للناس ، لأن العلم يُرَقِّى الجانب المادى للحياة ، فيختصر الشقة البعيدة ، والزمن الطويل إلى مدة أقصر ، ولهذا سموا عصرنا هذا « عصر السرعة » أو عصر « التغلب على المسافات » .

ولكن هل يستطيع أحد أن يسميه عصر « الفضيلة » أو عصر « الطمأنينة » أو عصر « السعادة للبشر » ؟

إن العلم هيأ للإنسان الحديث وسائل الحياة ، ولكنه لم يهده إلى غاياتها ، إنه زيَّن له ظاهرها . ولكنه لم يصله بأعماقها ،وما أتعس الإنسان إذا أغرقته الوسائل عن الغايات . وإذا شُغِل بالسطح عن القاع ، وبالقشر عن اللُّباب !

العلم المادى أعطى الإنسان أدوات كثيرة ولكنه لم يعطه « قيمة » كبيرة أو « هدفاً » رفيعاً يحيا له و يموت عليه .

ذلك أن هذه ليست وظيفة العلم وليست من اختصاصه . وإنما ذلك من اختصاص الدين .

ولقد رأينا من المفكرين والفلاسفة من لا يؤمن بالله . ولكنهم يؤمنون بالإيمان بالله ! أى يعتقدون بنفع هذا الإيمان باعتباره قوة هادية موجهة ، وقوة مؤثرة دافعة ، وقوة منشئة خلاَّقة .

لم يستطع هؤلاء أن يجحدوا ما للإيمان بالله من طيب الأثر فى نفس الفرد وفى حياة المجتمع ، فقال بعضهم : لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه!! أى نخترع للناس إلهاً يؤمنون به ! ويلتمسون رضاه ، ويخافون حسابه ، حتى ترتدع الأنفس الشريرة ، وتستقيم أخلاق الجماهير .

وقال آخر:لِمَ تشككون فى الله . ولولاه لخانتنى زوجتى، وسرقنى خادمى ؟!

ونحن لا نوافق على منطق هؤلاء فى عمومه ، فإن الحق أحق أن يُتَّبع مهما تكن نتيجته ، والأباطيل يجب أن تُطَارد كيفما كانت العاقبة . ولكن الذى يعنينا من قول هؤلاء ـ وهم خصوم الدين وأعداء الإيمان ـ أن أثر الدين والإيمان فى النفس والحياة لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف ، ولو كان من خصوم الإيمان .

إن الحقيقة يجب أن تُحترم لذاتها ، وإن لم تجلب نفعاً ، أو تدفع ضرراً ، فكيف إذا كان من ورائها أعظم المنافع ، وأطيب الثمرات ؟ !

ووجود الله تعالى وتفرده بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة ، وبعثة النبيين وصدق ما أخبروا به عن الحياة والآخرة ـ كل هذا حق قامت الأدلة على صدق ثبوته ، والإيمان به واجب ، لأنه حق . ومع أنه حق ، فقد نيط به صلاح الظاهر والباطن ، ورقى الفرد والمجتمع ، وسعادة الدنيا والآخرة .

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره فى النفس والحياة إنما نعنى الإيمان القوى الدافق . الإيمان حين يبلغ مداه ، ويشرق على القلوب سناه ، ويخط فى أعماق النفوس مجراه ، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعزع ، الإيمان المخدر النائم ، إنما نتحدث عن الإيمان الحى اليقظ . ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون ، فإننا نناقش هنا الماديين الذين يُشككون فى قيمة الإيمان . ليتعلموا أن الإيمان الذى يحاربونه كلما زاد عمقه فى القلوب ، وسلطانه على النفوس ، ازداد أثره المبارَك فى حياة الأفراد والجماعات .

وإذا كان هذا أثر الإيمان عموماً ، فإ ن الإيمان الإسلامى خصوصاً أكثر نفعاً وأطيب ثمراً ، فإن الإيمان فى الأديان الأخرى قد علق به ما شابه وكدَّر صفاءه . وربما أمكن أن يؤخذ من تعاليم بعض الأديان ، أو من سلوك رجالها ، بأنها عدو للحياة أو أفيون للشعوب . كما زعم « كارل ماركس » اليهودى ، وتلقفها الببغاوات هنا ، فرددوها ترديد الحاكى ، دون بصر ولا تمييز ، فإن الدين هنا غير الدين هناك ، والمجتمع هنا غير المجتمع هناك .

إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة ، والحق والقوة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة ، إنها عقيدة التوحيد التى تغرس فى النفس الكرامة والحرية ، وتجعل الخضوع لغير الله كفراً وفسقاً وظلماً ، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

وإذا كان للدين وللإيمان هذا الأثر فى كل بلاد الدنيا ، فإن أثره عميق ، وضرورته أعظم فى بلادنا الإسلامية والعربية خاصة .

إن لكل قفل مُحكم أصيل مفتاحاً مُعَّيناً ، مهما تحاول فتحه بغيره كانت محاولاتك عبثاً لا فائدة منه ، ولا طائل تحته . إلا إضاعة الوقت والجهد فى تجارب فاشلة .

ومفتاح الشخصية الإسلامية والعربية على وجه خاص هو الدين، هو الإيمان، هو عقيدة الإسلام .

ومهما نحاول أن نُذكى هذه الشخصية ، وأن نُفجر طاقاتها المكنونة بغير مفتاحها الأصيل ـ وهو الدين والإيمان ـ فإننا نحاول عبثاً ، كمن يبنى على الماء أو يكتب على الهواء .

بعقيدة الإسلام انطلق العرب من جزيرتهم ، يُخرجون العالم من الظلمات إلى النور ، ويؤدبون بسيوفهم الأكاسرة والقياصرة ، وكل من صَعَّر خده من الجبابرة ، وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا و الآخرة ، ومن جَور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام .

وبعقيدة الإسلام انتصرت أُمتنا العربية على أُوربا ، وقد جاءت بقضّها وقضيضها فى تسع حملات صليبية ، تريد أن تلتهم الأخضر واليابس فى هذا الشرق المسلم .

وبعقيدة الإسلام انتصرت على غزو التتار الذين زحفوا على الشرق كالريح العقيم ﴿ **مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** ﴾ [الذاريات : ٤٢] .. وكادوا يُدمِّرون الحضارة الإنسانية كلها ، لولا أن قيض لهم الله من مسلمى مصر والشام من ردهم على أعقابهم وهزموهم بإذن الله فى « عين جالوت » . وكان مفتاح النصر صيحة أطلقها القائد المملوكى « قطز » فهزت المشاعر ، واستثارت العزائم ، وأيقظت الهمم ، وهبَّت بها على المقاتلين نسمات الجنة . تلك هى الصيحة التاريخية « وإسلاماه » .

وأمتنا العربية اليوم تحارب عدواً شريراً يجثم على صدرها ، ويحتل قلب ديارها ، ويُهدِّد وجودها وكيانها بالتفتيت والتمزيق ، ذلك ، هو « إسرائيل » التى تمدها وتعاونها كل قوى الكفر فى العالم شرقيه وغربيه .

ولن نجد ـ فى حربنا مع هذا العدو ـ سلاحاً أمضى ولا أبقى من الإيمان . لا بد من العتاد الحربى والقوة المادية التى أمرنا الله بإعدادها ، لنُرهب بها عدو الله وعدونا ، ولكن السلاح لا يعمل إلا فى يدى بطل ، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان .

ولقد فُتِن أقوام منا بالمذاهب المادية الحديثة التى قذفنا بها الغرب ، والتى لا تجعل لله ولا للآخرة مكاناً فى الحياة ، ولا تعترف بالدين إلا باعتباره خادماً وأداة يمكن استخدامها ـ عند الضرورة ـ لاسترضاء الجماهير المتدينة أو إلهائها أو استثارتها لغرض موقوت .

ومن أجل ذلك نُحِيَ الدين والإيمان عن مكانه فى قيادة الأُمة وتربيتها . وعُزِل عن التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام ، وعن سائر ميادين حياتنا الفكرية والعملية الاجتماعة والسياسية ، إلا بعض رسوم ومظاهر و قشور أُبقيت للدين لا تُسمن من شبع ولا تُغنى من جوع .

فلما قامت المعركة القريبة فى (٥ يونيو ١٩٦٧) بيننا وبين عدونا كان معنا سلاح كثير وإيمان قليل ، فلم يُغن عنا السلاح شيئاً ، لم تغن الدبابات والطائرات والأساطيل وقواعد الصواريخ ، لأن هذه الأسلحة ـ على حداثتها وضخامتها ـ لم يقم عليها رجال مؤمنون . ورحم الله المتنبى حين قال :

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وهذه حقيقة ـ على مرارتها وقسوتها ـ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنعترف بها ، ونتخذ من هذه التجربة درساً وعبرة ، ونبنى حياتنا على أساس من الإيمان ومقتضياته ونُغيِّر ما بأنفسنا ، ليُغيِّر الله ما بنا ، وإلا فسنظل كالثور فى الساقية .

إن عدونا يُجند أبنائه على أساس دينى ، ويقذف بهم فى قلب المعارك بأحلام دينية تدور حول مجد إسرائيل ومُلك سليمان ، ونبوءات التوراة ، فكيف نُنكر نحن دور الإيمان ، ونُنحى المؤمنين ، بل نضطهدهم ونُعذبهم ! ، ونُلقى بشعارات « النصر للثوار » و « الغلبة للجماهير » وأُمتنا لا تعرف إلا أن « النصر للمؤمنين ، والعاقبة للمتقين »[١] .

ألا إن كل عمل يُوجه ضد الدين والإيمان فى بلادنا إنما هو عمل عدائى موَّجه إلى صميم كياننا ومقوِّمات حياتنا ، وجذور نهضتنا .

« نحن قوم مؤمنون » وهذا الإيمان هو أساس شخصيتنا ، وسر قوتنا ، ورافع رايتنا هو سر مجدنا فى الماضى ، وباعث انتفاضتنا فى الحاضر ، ومناط آمالنا فى المستقبل .

« نحن قوم مؤمنون » وهذه قضية بدهية ، يجب أن يلتقى على حمايتها وتثبيتها قلم الكاتب ، ولسان الخطيب ، وفكر الفيلسوف ، ووجدان الشاعر وريشة المصوِّر ، وتقنين المُشرِّع وسلطان الحاكم ، وقوة الجيش ، ورقابة الشعب .

يجب أن يرعاها الأب فى البيت ، والمُعلِّم فى المدرسة ، والأستاذ فى

---

(١) انظر فى هذا، كتاب « درس النكبة الثانية : لماذا انهزمنا وكيف ننتصر »؟ للمؤلف .

المحاضرة، والأديب فى القصة ، والصحفى فى الخبر ، والمؤلِّف فى الكتاب ، وكل ذى فن فى فنه .

إن كل ثغرة تُفتح فى أى جانب من جوانب حياتنا الثقافية والفنية والعملية لتُصوَّب منها سهام الشك أو الجحود فى صدر الإيمان ، تُعد خيانة عظمى لأمتنا وخروجاً سافرا على مبادئها ، ومروقاً من صفوفها ، وانضماماً إلى ألد أعدائها ، وتعويقاً لما تقوم به الجوانب الأُخرى من جهاد إيجابى بنَّاء .

وإنى لعلى يقين أن كلمة الإيمان ستعلو وتنتصر ، وأن كلمة الكفر والشك ستكون هى السفلى ، وصدق الله العظيم ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾ [ابراهيم :٢٤-٢٦] . .

دكتور

يوسف القرضاوى

obeikandl.com